المادية الآنية او المتوهَّمة. فمن جهة، لا يستطيع المستغَلّون، في اطار مجتمع الاستغلال ـ وهذه نقطة هامة ـ ، ان يعيشوا، الا اذا خضعوا لقانون الاستغلال السائد: لا يستطيع العبد في المجتمع العبودي ان يعيش الا اذا خضع للاستعباد (التمرد او الهرب معناهما موته من الجوع، او من العقاب)؛ ولا يستطيع الفلاح، في المجتمع الاقطاعي، الا ان يخضع لكل عمليات السخرة والنهب السائدة؛ ولا يستطيع العامل في المجتمع الرأسمالي ان يعيش الا اذا خضع للاستغلال المطبق في مجال عمله. من جهة اخرى، كثيراً ما يتوهم العبد، او الفلاح، او العامل ـ كل في مجتمعه ـ ، انه يحصل على الحظوة عند سيده، ويحمي نفسه بالالتصاق بذلك السيد وبالتملق اليه؛ وبهذه الآلية تنشأ قوة الشد الشخصية (أتباع فلان)، او الطائفية (أتباع هذا المذهب او ذاك)، او العنصرية (أتباع هذه القبيلة، او هذا العرق، او هذه المدينة، الخ).

نتيجة لذلك، كي تستطيع الطليعة الثورية الاتصال بالفئات المستغَلة، يجب ان تقوم بتغييرات عميقة وواسعة في المجتمع. وكي تستطيع القيام بمثل تلك التغييرات، يجب ان تعبىء الفئات المستغَلة، فيبدو الأمر وكأن الطليعة تدخل في حلقة مفرغة: وسيلتها للتغيير الاجتماعي هي بحاجة الى التغيير الاجتماعي، كي تصبح وسيلة.

غير الاتصال المباشر بالفئات المستغَلة، هناك لدى الطليعة الثورية امكانات الاتصال غير المباشر، او غير المباشر تماماً، ومن ذلك يمكن ذكر الاضرابات والتظاهرات والاجتماعات الجماهيرية واللقاءات والمؤتمرات، ثم الادبيات السياسية والسياسية ـ الاجتماعية والسياسية ـ الاقتصادية والسياسية ـ الادبية، او الفنية، الخ، الموزعة في منشورات، أو كراسات مستقلة، او كتب، او المكتوبة في الصحف، او المذاعة عبر الاذاعة أو التلفزيون، او المنفذة على المسرح، أو في السينما، الخ.

هذا النوع، الذي سميناه بالاتصال غير المباشر تمييزاً له عن الاتصال الشخصي المباشر، هو، قبل كل شيء، يكمل الاتصال المباشر ولا يعوض عنه. فالعملية التنظيمية تتم، فقط، بالاتصال المباشر الذي يمكن ان يمهّد له الاتصال غير المباشر. ثم هناك عقبات كبرى أيضاً أمام الاتصال غير المباشر، منها: القمع؛ فالسلطات الرجعية تقمع، بشدة، في كثير من الحالات، كل اعمال التظاهرات والاجتماعات وما شابهها، وتزداد شدة القمع باستمرار حتى في البلدان التي تريد المحافظة على المظهر الديمقراطي وعلى السمعة الديمقراطية (موقف الحكومة البريطانية من احداث ايرلندا، او من اضراب عمال المناجم، الخ)؛ ومن العقبات، العجز المالي، فالطليعة الثورية لا تملك، غالباً، الاموال اللازمة للانفاق على المقار والمسارح والصالات ووسائل الاتصال الجماهيرية (Mass Media). كذلك، هناك وسائل الاتصال المضاد الذي يغطي بسعة مداه وبصخبه وبديماغوجيته وبامكاناته المالية على النشاط الثوري، الأضعف عادة بامكاناته. بالاضافة الى ذلك، كثيراً ما تدبج المقالات او الدراسات او البيانات الثورية، مع نسيان أمر بسيط، هو ان هذه الادبيات لا تصل، عملياً، الى من توجه اليهم، إما لانهم لا يقرأونها أو لا يفهمونها، وإما لأنها محجوزة عنهم بواسطة السلطات الرجعية، وإما لانها لا تأخذ في الاعتبار بعض الأمور الأساسية من ظروفهم السائدة.

هذه الصورة العامة تجعل الامور تبدو وكأن الباب مغلق إمام الطليعة الثورية، فلا تستطيع ان تتحرك حركة مجدية.